

الامبراطور البيزنطي رومانوس الرابع ديوجينيس

(١٠٦٨ - ١٠٧١ م)

في ضوء حولية ميخائيل بسلوس

دكتور محمود سعيد عمران

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

موضوع هذا البحث هو الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes (١٠٦٨ - ١٠٧١ م) في ضوء حولية ميخائيل بسلوس Michael Psellus. والبحث في هذا الموضوع له أهداف متعددة، منها التعمق في مصدر من مصادر الدولة البيزنطية أثناء حكم الامبراطور رومانوس، خاصة أن ميخائيل بسلوس (١٠١٨ - ١٠٧٨ م) كان معاصراً وشاهد عيان، كما أنه شغل عدة مناصب عليا أهله لتتعرف على الأحداث عن قرب. ومنها أيضاً دراسة عصر رومانوس داخلياً وخارجياً، فن الناحية الداخلية كان هناك الصراع على العرش بين العسكريين والمدنيين في وقت كانت تمر فيه الامبراطورية بفترة من الضعف، وما ترتب على ذلك من نتائج. ومن الناحية الخارجية كان لنصرع الداخلي أثره في زيادة أطماع الدول المحيطة بالامبراطورية خاصة في الشرق والغرب. ففي الشرق نجد الاتراك السلاجقة وتقدمهم في شرق آسيا الصغرى وحملات رومانوس المتكررة لوقف غاراتهم وتقدمهم. وفي الغرب نجد النورمان في صقلية وجنوب ايطاليا وأطاعهم في الممتلكات البيزنطية، ومن أهداف هذا البحث أيضاً تقديم دراسة باللغة العربية في مجال الدراسات البيزنطية في وقت ندرت فيه تلك الدراسات في عالمنا العربي.

وخطه الباحث في هذه الدراسة تنحصر في تعريف ما سجله بسلوس في
حولته المنشورة باللغة الإنجليزية (١) ، ثم التعليق على المادة التاريخية
في الحواشي عندما يجب التعليق عليها حتى تصبح المادة التاريخية مفهومة
للقارئ. وفي نهاية البحث يقدم الباحث خاتمة يذكر فيها أهم الأحداث التي
وقعت في عصر رومانوس ولم يسجلها بسلوس في حولته . ولما كان التعليق
في "مطر أو أك" على ما قدمه بسلوس من مادة تاريخية غير كاف في بعض
النقاط ، فقد أفرد الباحث ثلاثة ملاحق في نهاية البحث ، إما لتحقيق جانب
من جوانب المادة التاريخية ، أو لايضاح حادثة لم يوفها بسلوس حقها
من الكتابة أو اللاتين معاً . ولما كان حكم الامبراطورة يودكيا Eudocia
كوصية على ولدها القاصر ميخائيل وقسطنطين Constantine
(١٠٦٧م) مقدمة لحكم رومانوس الرابع ، فقد وجد الباحث أن يبدأ مع حكم
يودكيا حتى يتضح الموقف بجلاء .

والله ولي التوفيق ، ،

عمود سعيد عمران

اسكندرية في يوليو ١٩٨٠

Psellus, Michael, Chronographia, tr. Sewter, London, 1953.

وهي النسخة التي رجع اليها الباحث . وهناك طبعة أخرى باللغة الفرنسية نشرت في جزئين

في باريس ١٩٢٦ .

يود كيا ١٠٦٧ م ، رومانوس الرابع ١٠٦٨ - ١٠٧١ م

يود كيا تصبح حاكمة على الامبراطورية مع والديها ميخائيل وقسطنطين

١ - عندما خلفت الامبراطورة يود كيا زوجها (١) بعد وفاته حسب رغبته ، فانها لم تقم بتسليم الحكم إلى آخريين (٢) . لقد نأت بنفسها عن قضاء معظم حياتها عاطلة في القصر بينما يقوم رجال الدولة بتسيير دفة الحكم . كما كان سلوكها في البداية يتسم بالتواضع ولم تسرف في استخدام المواكب الامبراطورية أو في زينا . لقد تحملت المسئولية بكل وعى ، وشاركت في كل اجراءات الحكم بصورة عملية كلما أمكنها ذلك ، فكانت تختار رجال الحكم ، وتنظر في الشؤون العامة والايادات والضرائب ، وانست عباراتها بنبرات القوم التي يجدها المرء في أى إمبراطور . ولم يكن هذا يدعو للدهشة لأنها في الحقيقة كانت امرأة ذات كفاءة عالية . وقد شاركتها في الحكم ولداها (٣) وكل منهما يعرف قدر نفسه وقد سيطر عليها الخوف والاجلال لأمرها .

٢ - وليس من المستغرب أن يحترمها ابنها قسطنطين ، وهو لا يزال طفلاً غير قادر على فهم شؤون الدولة ، ولا يستطيع ميخائيل بلبوس أن يشي عليه لتواضعه الطبيعي . أما الابن الثانى ميخائيل فكان له وضع آخر ، فقد

(١) هو قسطنطين الناشر دو كاس ١٠٥٩ - ١٠٦٧ م .

(٢) ينطبق ذلك على الرسالة اللاحقة لوفاة زوجها فقط في عام ١٠٦٧ م أما بعد زواجها من رومانوس الرابع فقد أصبح الأخير امبراطوراً ويده كل السلطات .

(٣) هما ميخائيل وقسطنطين أنظر الموضوع رقم (٢) .

تجاوز مرحلة الصبا وأصبح قادراً على فهم شؤونه (١) ، وأثبتت المواقف التي شاهدها ميخائيل ببلوس نضوج عقله بدرجة واضحة . ومن الصعب أن نقارن بين دوافع الفتي الطبيعية والطريقة التي سلك بها مقاليد الحكم لأمه ، ويرى ببلوس عدم الثناء على الفتي في هذا الصدد .

ويقول ببلوس انه كثيراً ما شاهد الفتي ميخائيل في مناسبات عديدة وهو صامت في حضرة أمه كما لو كان عاجزاً عن الكلام ، رغم أنه كان بوسعه الحديث . وكان الفتي يملك القدرة على القيام بأى عمل يطلب منه ، إلا أنه لم يسهم في الأمور التي تتعلق بشئون الامبراطورية .

٣ - وليس من الصواب القول بأن يودكيا أم ميخائيل كانت منحصرة وتزجره في بداية حكمها . والحق أنها كانت تقوم بتأديته بنفسها ليصبح امبراطور المستقبل . كما سمحت له فيما بعد بتعيين رجال الدولة وشجعته على أن يعمل قاضياً . وكثيراً ما كانت تعبر عن حبا لها وتعزرها بقبلائها . وأحياناً كانت تثنى عليه وتعبر عن فخرها بعلمه . وكانت يودكيا تتم بمسك ابنتها ميخائيل وتعهده لمختلف الواجبات التي يتعين أن ينهض بها الامبراطور . وكثيراً ما كانت يودكيا تعهد بابنتها ميخائيل إلى ببلوس وتطلب منه أن يعلمه أصول وظيفته وأن يسدى النصيح اليه . واعتاد ميخائيل أن يجلس على العرش الامبراطوري إلى جانب شقيقه قسطنطين ، لأن ميخائيل كان كريم الطباع بالفطرة ، ولم يعتزم أن يحتفظ لنفسه بالسلطة كاملة . والحقيقة انه كان يسمح لشقيقه أن يشاركه في واجباته كإمبراطور . وهكذا سارت الامور في تلك الأوقات، وكان عليها أن تبقى حتى النهاية دون تغيير

(١) انجبت يودكيا من زوجها قسطنطين العاشر ثلاث أولاد هم ميخائيل المعروف بالسابع ١٠٧١ - ١٠٧٨ م ، واندرونيقوس وقسطنطين وثلاث بنات هن أنا وثيردورا وزوى .
أنظر C.M.H.VI, p, 393 . وقد توفي أندرونيقوس أثناء حكم أبيه .

راجع Psellus, op. cit., p. 260.

وكان ميخائيل في الرابعة عشر من عمره عند وفاة والده عام ١٠٦٧ م أنظر مايل س ٢٠

ما لم يتدخل القدر القاسى بضرباته . (١)

٤ - في هذه المرحلة من الحولية بود بسلوس أن يروى شيئاً عن الامبراطورة يودكيا . يقول بسلوس : حتى هذه المرحلة لا أعرف امرأة أخرى تظاهرها في الحكمة أو عاشت مثل حياتها . ولا يعضى بسلوس إلى أبعد من ذلك ولكنه يذكر أنها لم تصح أقل حكمة بعد هذه المرحلة وإنما صارت أقل اهتماماً . لقد أخذت أفكارها تتغير بتقدمها في العمل . ويدافع بسلوس نيابة عنها ويذكر لو كان هناك بعض التغيير في تصرفاتها فأنها لم تعد عبداً للذات ولم تستسلم للانفعالات الماجنة . والواقع أنها كانت قلقة على ولديها ميخائيل وقسطنطين . وكانت تخشى أن يجرما من التاج إذا لم يتم شخص بمباهمتها وارشادهما . ولم تكن الحياة في القصر تروق للامبراطورة يودكيا . وتبرهن الحادثة التالية على ذلك . لقد كان بسلوس أخاً روحياً لوالد يودكيا ، (٢) وكانت تكن له احتراماً فائقاً وتنظر إليه كشيء مقدس . لقد حدث أن كان بسلوس معها ذات مرة في إحدى الكنائس المقلّمة ، وشاهد عمق إيمانها بالله ، ومدى إخلاصها للسيد المسيح ، فنأثر ودعا لها من كل قلبه أن تتمتع بالسلطة مدى حياتها . ولكن يودكيا استدارت وعنفته على ذلك وقالت إن هذا الدعاء لعنة ، اننى لا أتمنى أن يكتب لى أن أتمتع بالسلطة طويلاً ، وان أموت امبراطورة . ه ولقد ملأت هذه الكلمات قلب بسلوس بالخوف والرهبة واعتبرها أسى من أن تكون بشراً .

(١) يقصد أفترخ هذه العبارة زواج يودكيا من رومانوس ديوجينيس وسيطرته على العرش ، وسيطرة الحزب العسكري على الحكم . أنظر .

Vasiliev, A., History of Byzantine Empire, Madison, 1928, I, p. 427.

(٢) واند يودكيا هو قسطنطين دالاسينوس Dalassenus وقد أشار إليه بسلوس في حديثه عن قسطنطين العاشر وذكر أن دالاسينوس كانت له شهرة في المجال الثقافي . أنظر Paelus, op. cit., p. 255

٥ - على أية حال فالإنسان كائن غير ثابت وغير مستقر خصوصاً عندما تقدم له الظروف الخارجية سبباً للتغيير . لقد كانت هذه الامبراطورة امرأة ذات خلق رقيق وروح نبيلة ، ولكن قوة مشاربها الحكماء اهتزت من قوة الأحداث التي اندفعت واصطدمت بها ، واغرقت بأن تزوج للمرة الثانية (١) . وكان هناك بعض الناس يعرفون ما يجري ولكنهم قالوا أن للقدبر بدأ في الأمر ، كما أن يودكيا لم تنوه بنواياها إلى بيلوس ، ولا شك أنها فعلت ذلك بدافع الحجل . لقد أرادت أن تتحاشى ذكر اسم الزوج المنتظر وأن تضع في الوقت نفسه حداً للشائعات التي راجت حول شخصيته . ومن ناحية أخرى أرادت يودكيا أن تعرف بيلوس بخطتها . وعلى ذلك زار أحد مشاري الامبراطورة الأشرار بيلوس وأوعز اليه أن يتحدث مع الامبراطورة صراحة في موضوع الزواج ويقترح عليها أن تضع على العرش أحد النبلاء . وكانت اجابة بيلوس موجزة ، فقد قال انه لن يقدم مثل هذه النصيحة ولن يحاول اقناعها بالحجة ولن ياجأ إلى أي وسيلة حتى

(١) يود المؤرخ أن يوضح لنا في هذا الموضع أن يودكيا تزوجت من رومانوس رغماً عنها وأن الظروف التي أحاطت بها كانت أقوى منها . وهناك رواية أخرى حول زواج يودكيا توضح لنا أنها كانت ممتدة بصفتها خاصة بموقف البطريق البيزنطي يوحنا اكسيلينوس John Xiphilinus (١٠٦٣ - ١٠٧٥ م) الذي كان مصراً على أن تظل يودكيا دون زواج وفاء للقسم الذي أقسمته لزوجها الراحل . ولكن تحصل على موافقة البطريق وتزوج من رومانوس تأمرت مع أحد خصيان انقصر الذي اقترح على البطريق زواج أخيه بارحاس Bardas من الامبراطورة . وقد عرض البطريق على مجلس الشيوخ فكرة زواج أخيه دون الحاح ، ولما كان بارداس غير ملائم لهذا المركز فقد وافق المجلس في النهاية على زواجها من رومانوس . انظر

Finlay, History of Greece, Oxford 1877, III, pp. 24-5.

ويحل الباحث إلى الأخط بأن يودكيا كانت رغبة في الزواج من رومانوس ولم تجبر على ذلك . ويؤيد ذلك أقوال يودكيا التي أوردها بيلوس . انظر مايل ص ٧ .

ذا سنتحت له الفرصة . (١)

٦ - وحوالى ذلك الوقت انتشرت شائعات وصلت إلى مسامع البلاط ، لقد اختارت يودكيا امبراطور المستقبل . وطبقاً للترتيبات التي أعدوها كان هذا هو اليوم المحدد لوصول الامبراطور المنتظر إلى المدينة ، وفي الصباح التالي تقام مراسم التتويج . وفي أمية اليوم نفسه استدعت يودكيا بسلامس ، وعندما أصبحا بمفردهما تحدثت يودكيا إلى بسلامس وقد امتلأت عيناها بالدموع وقالت ، يجب أن تترك مدى ضياع هبة الامبراطورية ، والحاجة إلى الأموال بسبب الحروب التي تنشب باستمرار ، وجحافل البرابرة الذين يهبون الشرق كله (٢) ، كيف يتسنى للامبراطورية أن تنجو من الكارثة ؟ وليس لدى معرفة بالأحداث التي جرت ، وان الامبراطور المرشح يقف على أبواب القصر . وقد أجاب بسلامس بأن المسألة ليست من السهولة بحيث يبت فيها على الفور ، وأضاف أن هذا الموضوع يتطلب التفكير الجدى ، وعلى حد قول المثل المعروف ، من الأفضل أن نقترح اليوم وأن نستمع غداً ، ولكن يودكيا واصلت حديثها ضاحكة وقالت ، لا فائدة في التفكير الآن ، لقد بت في الأمر من قبل وتم اتخاذ القرار . لقد طلب إلى رومانوس بن ديوجينيس أن يحكم كإمبراطور ، وفضلته على الآخرين (٣)

(١) كان بسلامس يشغل منصب رئيس الوزراء ويمثل الاسترطالية المدنية كما كان رومانوس يمثل الاسترطالية العسكرية ولذلك كان بسلامس يصل بكل جهده حتى لا يصل رومانوس إلى السلطة لأن ذلك يعنى ضياع نفوذ بسلامس وحزبه .

(٢) المقصود بالبرابرة في هذا الموضع الأتراك السلاجقة الذين سيطروا على الخلافة العباسية وبدأوا يتقدمون في آسيا الصغرى واستولوا على مدينة آني Ani عام ١٠٦٥م وخربوا قيصرية في عام ١٠٦٧م أنظر :

Ostrogorsky, History of Byzantine State, Oxford, 1956, p. 303.

(٣) توضح هذه العبارة أن يودكيا كانت رغبة في الزواج من رومانوس ولم تجبر على قبوله ، وهذا يخالف الحالة التي سجلها المؤرخ من قبل . أنظر ماسبق ص ٦ .

٧ - لقد أصابت هذه الكلمات بسلوس بالرعب على الفور ، ولم
يستطع أن يتصور ما سيحدث له (١) . فقال : حسنا ، سوف أدلي برأى
في هذا الموضوع غداً ؟ فأجابت يودكيا ، ليس غدا بل الآن وعليك أن
تؤيدني وتعضدني . فأمسك بسلوس بزمام المبادرة وطرح سؤالاً واحداً ،
وقال ليودكيا : هل يعرف ولدك الامبراطور الذي يفترض أنه سوف
يحكم الامبراطورية ذات يوم بمفرده بما حدث . فأجابت يودكيا : انه يعرف
طرفاً من الموضوع وليس لديه كل التفاصيل بعد . وأضافت : على أية حال
فاني مسرورة لكرك ولدي ، ولتذهب اليه ونشرح له كيف تسير الأمور ،
انه ينام في أحد الأجنحة الامبراطورية .

٨ - ذهب بسلوس ويودكيا إلى الفتى ، ولم يكن بسلوس يعرف
مدى شعورها ، ولكنه كان ثائراً للغاية ، ولذلك سرت في جسده رمشة
مفاجئة بدأت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . وجلست يودكيا على سرير
ولدها ونادته : يا امبراطوري ويا ولدي المفضل ، أنهض واستقبل زوج
أمك ، ورغم أنه سيحتل مكان والدك فانه سيظل من الرعايا وليس امبراطوراً ،
أنا أمك وقد ألزمتك كتابة بأن يراعى هذا التعهد (٢) . ونهض الفتى من
مخدعه في الحال ونظر إلى بسلوس نظرة مريبة ولم يكن لدى الأخير أية
فكرة عما يفكر فيه الفتى الذي غادر الغرفة التي كان ينام فيها مع أمه
ومشى حتى قابل الامبراطور الجديد وجهاً لوجه دون أى انفعال ، فقد كان
وجهه جامداً التعبير تماماً ثم احتضن روماتوس وأصبح شريكاً له في العرش وصديقاً .

(١) توضح هذه الجملة خوف بسلوس على مركزه إذا أصبح روماتوس امبراطوراً ،
وتسلطت الاسترطالية العسكرية على الحكم .

(٢) إذا كانت يودكيا قد حشنت بالقسم الذي أقسمته بعدم الزواج بعد زوجها تسطنين
العاشر ، فكيف تضمن أن يظل روماتوس محافظاً على عهده بعد ما يصبح امبراطوراً ؟ . لقد
استحوذ روماتوس على السلطة وعامل يودكيا معاملة سيئة . انظر مايل ص ١٠ .

٩ - عندئذ حضر القيصر (١) ، ولم تظهر مهارته الدبلوماسية في صورة أروع مما بدت عليه في ذلك اليوم . لقد أجرى القيصر بعض الاستفسارات عن ابن أخيه الامبراطور ، ثم أضاف كلمات قليلة مثنياً على رومانوس ، وتلى ذلك تقبل التهانى من الحاشية والأمرسة الامبراطورية . وكان يوسع المرء أن يسمع رومانوس وهو يفتنى أنشودة الزفاف ، ويراه يشرب نخب المناسبة ، وهكذا آل حكم الامبراطورية إلى يدى الملك رومانوس (٢) .

حكم رومانوس ديوجينس

١٠ - كان الامبراطور رومانوس بن ديوجينس سليل أسرة قديمة ومعروفة ، ولكن ذلك كان من جانب واحد ، فقد كان والده مجرمًا وألقى القبض عليه بتهمة التمرد خلال حكم رومانوس أرجيروس Romanus Argyrus. (٣) ، وقد اتهم ديوجينس بأن ألقى بنفسه في جرف . ورغم هذا فقد كانت هناك مناسبات ظهر فيها بأنه مستقيم ولكنه كان مرثياً ومتبجحاً في معظم حياته . أما رومانوس الابن فلم يخل من الخيانة في ذلك الوقت ، وقد مرت كل الحيل والمكائد التي حاكها خلال حياته دون أن يفتن اليها أحد إلى أن أصبحت يودكيا امبراطورة . ولقد وصفت هذه السيدة في الصفحات السابقة . ولم يفصح رومانوس عن نواياه السرية حتى

(١) هو جون دو كاسي أخ قسطنطين العاشر . انظر .

Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

(٢) حكم رومانوس من ١ يناير ١٠٦٨م أنظر C.M.H. IV, p. 1, p. 209

وظل حكمه حتى ١٦ أغسطس ١٠٧١م . راجع مايلي ص ١٦ .

(٣) يعرف برومانوس الثالث أرجيروس وحكم من ١٠٢٨ - ١٠٣٤م ، وقد ذكر

المؤرخ أن عدة ثورات قامت ضد رومانوس أرجيروس ولكنه لم يذكر ديوجينس بالاسم . انظر

Pselius, op. cit., p. 51.

تولت يودكيا العرش . لقد اعتقل رومانوس عندما تولت يودكيا السلطة (١) ، وكانت جرأته وجسارته تعرضه للخطر لولا عطف الامبراطورة ورحمها التي أنقذته من العقاب . وكان هذا حكماً خاطئاً من جانبها ، وكان الواجب أن تحكم عليه بالموت ، ولكنها أنقذت غنمه بدلا من ذلك (٢) . وبعد أن فعلت ذلك اعتقدت أن سيادتها ستأكد وتتدعم إذا نصبته امبراطوراً . وكان يجب أن يكون عند حسن ظنها ولا يعارض رغباتها ، وكان هذا هو التوقع المعتول ، ولكن خططها باءت بالفشل . فبعد أن تظاهر لبضعة أيام بأنه من رعاياها المخلصين ، عاد إلى سيرته الأولى . وكلما حاولت السيطرة عليه وعاملته كأنه سيدها - مثل الليث في القفص - ثار على نفوذها الذي يقيد وعض اليد التي تمخه . وفي بداية الأمر كان يثور داخلياً ويمرر الوقت أصبح احتقاره للامبراطورة واضحاً للجميع .

١١ - يقول بيلوس : يجب على أن أعترف أن موقف رومانوس منه شخصياً كان ينم بالتوقير والاحترام . والحقيقة أن رومانوس عندما كان مواطناً عادياً كان يلتصم رضا بيلوس بكل خضوع ومذلة ، وقد ساعده الأخير في حياته . وعندما اعتلى رومانوس العرش لم ينس خدمات بيلوس وفضله ، وأظهر له الحب والاحترام حتى انه كان ينهض عندما يمثل بيلوس أمامه ويعامله كأعظم صديق له . ويضيف بيلوس قائلاً : على أية حال ان ما ذكرته كان استطراداً وخارج عن المحور العام للموضوع (٣) . ولكن المهم أن رومانوس كان يرغب في الانفراد بالحكم ولا يشاركه في العرش أحد . ولسوء الحظ أن رومانوس لم يسهم اسهاماً كبيراً في الشؤون العامة

(١) تولت العرش في ٢١ مايو ١٠٦٧م وهو تاريخ وفاة زوجها . أنظر : Ostrogorsky, op. cit., p. 304. وظلت حتى ٣١ ديسمبر من العام نفسه وتزوجت في أول يناير ١٠٦٨ من رومانوس ديوجينيس .

(٢) اتهم رومانوس بالآمر على عرش الامبراطور القاصر ميخائيل بن يودكيا . أنظر : Finlay, op. cit., III, p. 24.

(٣) تفيد هذه العبارة أن المؤرخ يس ما يكتب وأنه خرج عن محور موضوعية .

للإمبراطورية أثناء الفترة التي سبقت توليه العرش (١) ، وعلى الرغم من ذلك فقد انتظر الفرصة بفارغ الصبر . هذا ، ويرجع اعلائه الحرب ضد الفرس (٢) إلى طموحه الشخصي أكثر من رغبته في تأمين أقاليم الإمبراطورية .

١٢ - كان من عادة بسلوس أن يسدى النصائح المفيدة إلى الإباطرة ولهذا حاول كيج جاح رومانوس وأشار إلى ضرورة مناقشة مسألة القوات العسكرية واعداد قواتهم بالجند ، والتحالف مع قوى خارجية ، وبعد اكتمال كل الاستعدادات يعلن الإمبراطور الحرب . ولكن الثرائيين الذين اعتادوا معارضة بسلوس - مع استثناء بعضهم - جلبوا الخراب على الإمبراطورية . لقد عارضوا رأي بسلوس واستمروا في المعارضة (٣) . ولهذا سادت أسوأ الآراء . لقد استعد الإمبراطور للحرب في القصر وأمسك بدرع في يده اليسرى ويرمح في اليمنى ، مقوى بحلقات ، ويبلغ طوله اثنين وعشرين ذراعاً (٤) . واعتقد رومانوس أنه يستطيع بدرعه أن يمنع غارات العدو ، وبرمحه اصابة جناح جيش العدو . وأطلقت حاشية الإمبراطور صرخات الحرب وصفقوا وهلّلوا لذلك . وبدأ على وجه بسلوس مات القلق لأنه أحس بالهواقب المحتملة .

(١) واقع الامر غير ذلك ، فالمعروف أن رومانوس كان رجلاً له شهرته العسكرية وأنه تمكن من صد حملة البجانكية ضد الإمبراطورية وبسببها أصبح له مكانته العسكرية التي مكنته من الدخول في الحزب العسكري . أنظر . Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

(٢) المقصود بالفرس الاتراك السلاجقة وقد اعتاد المؤرخ هذه التسمية أو كلمة البرابرة .

(٣) المقصود بالمعارضة الحزب العسكري الذي يساند الإمبراطور رومانوس .

(٤) يشبه المؤرخ بسلوس الإمبراطور رومانوس بأياس Aias بطل الآخيين في مواجهة البطل الطروادى هيكتور Hector أنظر :

Homer, Iliad, London, 1963, XV, 678.

١٣ - على أية حال ، خرج رومانوس من المدينة على رأس جيشه وتقدم نحو البرابرة (١) دون أن يدري أين يسير أو ماذا يفعل وأخذ يتجول في البلاد على غير هدى فهو يخطط للسير في طريق ويسير في طريق آخر ، فقد دخل الشام وفارس . (٢) وكل ما حققه من نجاح هو اختراقه لهذه الأراضي ووضع قواته على بعض التلال المرتفعة ثم انزال القوات مرة أخرى والمرور في ممرات ضيقة . وقد عانى من كوارث جسيمة نتيجة نصرته ، انه لم يأت بغنائم حرب من الميديين (٣) أو الفرس . ان شياً واحداً قد أقتنع به الامبراطور ، ذلك أنه سار ضد أعدائه .

١٤ - وهنا يكمن أول مبرر لرومانوس للزهو والخيلاء ، فنذ ذلك الوقت أخذ يبدي ازدهاره الكامل للامبراطورة ، ويحترم موظفي الدولة ، ويرفض الاستماع إلى أى نصيحة . وهذا داء الأباطرة ولا دواء له . ولم يعد يعتمد على أى ناصح أو مستشار ولم يسترشد برأى أحد سوى رأيه الشخصي في كل الظروف دون استثناء . أما بالنسبة لبسوس فانه يقسم بالله الذي تجله الفلاسفة انه حاول رده عن مطامحه . ويضيف بسوس أنه كان يعرف خطئه المخادعة ، وكان يخاف على الامبراطورة والدولة من أن تفقد كل شيء ، في تمرد أو اضطراب . ولقد ذكر بسوس الامبراطور بتعهداته الموقرة ، وحاول كلما أمكن أن يخيفه باحتمال الاخفاق في نهاية الأمر ، وأن خطئه ربما تنقلب شراً وبيلاً عليه . وعندما أبدت يودكيا استيائها من اهاناته - كما كان يحدث كثيراً - واشتكت إلى بسوس ، حاول الاصلاح والتوفيق بينهما .

(١) التصود بالبرابرة هند الملون .

(٢) وقعت أحداث هذه الحملة في العشرين من نوفمبر ١٠٦٨ م ، وقد استولت القوات البيزنطية على مدينة منج وهدمت السلاجقة مدينة عمورية . أنظر الملحق رقم (١) .

(٣) يقصد القزح المراد سيون في حلب . أنظر ابن العديم . زبدة الحلب دمشق ١٩٥٤ ص ٢٢ وما بعدها .

١٥ - وفي بداية الربيع ، أى بعد فترة ليست بطويلة (١) ، أخذ العدو يثير المتاعب وتبين أن حملة الامبراطور السابقة قد حققت نصراً أجوقاً . ولهذا تجددت الاستعدادات لغرض الحرب ، ويقول ببلوس اننى سوفأ أتجاوز عن بعض الأحداث التي وقعت ، واننى شاركت بدور متواضع في الحملة . وحقيقة الأمر أن الامبراطور أجبرنى على الانضمام للحملة وما كان لى أن أرفض (٢) . ويفضل ببلوس الا يقول شيئاً عن سبب إصرار الامبراطور على مرافقته في الحملة لأنه يوجب معظم الأحداث والوقائع وأنه التزم بذلك في هذا الموضوع . والمهم أنه لا يوجد من يستطيع أن يتهمه بعدم الاخلاص للامبراطور أو يلومه على فشل خطط الامبراطور .

١٦ - كان الامبراطور رومانوس يقر ويعترف أنه أقل ودون مستوى ببلوس في كل المسائل المتعلقة بالأدب . ويقول ببلوس : أنه يتحدث في عن العلوم . ولكن رومانوس كان يطمح في أن يبرز ويتفوق على ببلوس . لقد كان لدى ببلوس معرفة دقيقة بعلم الحطط العسكرية فقد درس بعنى كل ما يتصل بالتشكيلات العسكرية ، واستخدم أدوات الحرب ، والهيطرة على المدن . وقد أثار كل هذا اعجاب الامبراطور كما أثار غيرته وحسده . وقد حاول رومانوس قدر أستطاعته مجاداة ببلوس وحاول التغلب عليه أثتله هذه المجادلات . ويدرك كثيرون بمن اشتركوا معنا في هذه الحملة أن هذا الوصف ليس مبالغاً فيه (٣) .

(١) وقعت الحملة الأولى أواخر عام ١٠٦٨ م ، وأن الربيع يراد به ربيع ١٠٦٩ م خاصة وأن المؤرخ ذكر أن هذه الأحداث وقعت بعد فترة ليست بطويلة وهي حملة رومانوس على مدينة خلاط . أنظر الملحق (٢) .

(٢) كان ببلوس أحد أقطاب المعارضة للامبراطور رومانوس وحزبه العسكري ولعل إصرار رومانوس على إسطحاب ببلوس في هذه الحملة هو خوف رومانوس من مؤامرة تدبر في غيبته .

(٣) يرى المؤرخ ببلوس أنه أقدر من الامبراطور رومانوس في الجوانب العسكرية من الناحية النظرية على الأقل . ويبدو في ذلك غروراً من المؤرخ والحقيقة أن ما ذكره المؤرخ في الموضوع السادس عشر هذا يعد استطراداً في النص ليظهر فيه قدراته الفلصية والعسكرية .

١٧ - والحرب الثانية (١) لم تكن أكثر توفيقاً من سابقتها . ويقول بيلوس : الحقيقة أنها كانت غير حاسمة واحتفظ العدو بما تحت يديه في كل مكان . ووقعت عشرات الألوف من رجالنا أسرى ، بينما لم نأخذ من أعدائنا إلا القليل من الأسرى . وعلى أية حال فإن [البيزنطيين] لم يهزموا ونجحوا في أحداث هرج هائل بين صفوف البرابرة (٢) . ونتيجة هذا كله أصبح رومانوس أكثر غروراً وفخراً ووقاحة من ذي قبل لأنه قاد الجيش مرتين ، ولم يعد يحرم شيئاً والأمر من ذلك أن مستشاري سوء الذين استمع إليهم قد ضلوه تماماً .

١٨ - أما الامبراطورة يودكيا فقد عاملها رومانوس كأسيرة حرب بل إنه كان سيوافق على طردها من القصر . لقد كان يشك في القيصر (٣) ، وفي مناسبات عديدة كان يخطط لاعتقاله وإعدامه ، ولكنه سرعان ما كان يغير رأيه ويتخلى عن الفكرة . وعلى أية حال فقد أرتضى رومانوس في هذه المرحلة أن يجبر القيصر وأولاده (٤) على أن يقسموا له بيمين الولاء والطاعة وعندما لم يصبح لدى رومانوس أية خطة لتنفيذها ضد القيصر شرع في حملته الثالثة والأخيرة ضد البرابرة الذين أظهروا عداهم الصريح . لقد كانوا يشنون غارات السلب والنهب على الأراضي الرومانية . وعندما حل الربيع (٥) اجتاحتها بأعداد غفيرة (٦) . ولهذا غادر رومانوس العاصمة مرة أخرى

(١) تنيد هذه الجملة أن رومانوس قام بحملة أولى وهي ما أشار إليها الباحث أنها وقعت أواخر عام ١٠٦٨ م . والمقصود بالحرب الثانية هي التي وقعت في ربيع ١٠٦٩ . أواسط عام ١٠٦٩ م .

(٢) عن تفاصيل هذه الحملة أنظر الملحق رقم (٢) .

(٣) هو يوحنا دو كاس الذي يشكل مع بيلوس زعامة حزب المعارضة ضد رومانوس Ostrogorsky, op. cit., p. 304

(٤) هما قسطنطين وأندرونيقوس أنظر :

Brehier, L. Vie et Mort de Byzance, Paris, 1947, p. 282.

(٥) ربيع عام ١٠٧١ م أواسط عام ١٠٦٣ م . تابع مايل من أحداث عن معركة مانزكوت .

(٦) عن تحركات السلاجقة في هذه المرحلة أنظر الملحق رقم (٣) .

لجارتهم مصحوباً بجيوش حليفة ووحدات عسكرية وطنية أعظم من ذي قبل (١) .

١٩ - ولما كان رومانوس قد اعتاد عدم الاستماع للنصائح سواء في المسائل المدنية أو العسكرية ، فقد خرج بجيشه في الحال وأسرع إلى قيصرية (٢) ، ولما وصل إلى هذا الموقع خشي أن يتقدم بعد ذلك . وحاول أن يجد عنراً للعودة إلى بزنطة ، لا خزانة على نفسه فقط وإنما لمصلحة الجيش أيضاً . ولما كان في انسحابه عاراً يفوق طاقته ، فقد فكر في الاتفاق مع العدو لطوق انتمائه السنوية . ولكن هذه الفكرة لم تنفذ (٣) . وربما كان في حالة من اليأس والقرط أو غرور الامبراطور بثقته في نفسه ، حين اندفع بقواته مهاجماً دون أن يتخذ الحيلة لحاية مؤخرة جيّشة . وعندما رآه العدو يتقدم تهرز استدراكه وإيقاعه في الشرك بالخدعة . وتظاهر الاعداء بالتقهقر المدبر ، وبتكرار هذه العملية عدة مرات نجحوا في عزل بعض قوادنا الذين

(١) كان الجيش البيزنطي يتكون في هذه الحلة من ثلاثمائة ألف ويزينون ما بين رومي حوروسي وغزي وقنجاقي وكريمي وأبخازي وسخزي وفرنجي وأرميني . أنظر الأصفهاني : تاريخ دولة آل سلجوق . القاهرة ١٩٠٠ ص ٣٧ .

وإختلفت المصادر البرية حول عدد الجيش البيزنطي وأن أقل عدد هو مائة ألف أنظر ابن العبري : تاريخ مختصر الدول - بيروت - ١٨٩٠ - ص ٤٣٢٣ وذكرت بعض المراجع الأجنبية المتخصصة أن الجيش البيزنطي كان حوالي ستين ألف . راجع .

Oman, C., The History of The Art of War in The Middle Ages, London, 1924, I, p. 219.

(٢) تقع قيصرية على مسافة ٦٥٠ كيلو من القسطنطينية وهي المسافة نفسها من قيصرية إلى ماتركوت تقريباً .

(٣) واقع الأمر أن السلطان السلجوق ألب أرسلان هو الذي يادر بمعرض فكرة الصلح على الامبراطور رومانوس ، ولكن رومانوس رفض وقال لاهلته إلا بالرى . أي بعد دخول رومانوس مدينة الري . أنظر . ابن الأثير : الكامل - بيروت - ١٩٧٩ - ج ١٠ ص ٦٦ .

دخلوا أسرى (١) .

٢٠ - ويقول بسلوس أنه أدرك في هذه المرحلة - ولو أن الامبراطور لم يدرك - أن السلطان نفسه، ملك الفرس والكرد (٢)، كان موجوداً شخصياً مع جيشه وأن معظم انتصارات الجيش ترجع إلى مهارته القيادية . ولقد رفض رومانوس تصديق أى شخص تادى بتأثير السلطان في هذه الانتصارات . والحقيقة أن رومانوس لم يكن يريد السلام، فقد كان يعتقد أنه سيستولى على مسكر البرابرة دون قتال . وأسوء الحظ فقد تسبب بجهله للعلوم العسكرية في نشيت قواته (٣) ، فبعضها كان مركزاً حوله شخصياً والبعض الآخر أرسل للسيطرة على بعض المواقع . ومن ثم قبلا من مواجهة أعدائه بقواته متكاملة فقد اشترك بأقل من نصفها (٤) .

٢١ - ورغم أن بسلوس لا يمكنه أن يثني على هذا العمل ، فإنه لا يستطيع أن يوجه اللوم الامبراطور . ويقول بسلوس : والحقيقة أن

(١) ذكر الأصفهاني أن تملك الروم قد قدم رؤساء مقرين من الروس في عشرين ألف فارس ، وغالطوا بلاد غلاط بالبلاء والسلب والبياء فخرج اليهم صنداق التركى وقتل منهم خلقاً كثيراً وقادهم في القيد . وذلك يوم الثلاثاء رابع ذى القعدة عام ٤٦٣ هـ (٣ أغسطس ١٠٧١م) أنظر : الأصفهاني : المصدر السابق ص ٣٨ .

(٢) المقصود به السلطان ألب أرسلان .

(٣) تعرف هذه المعركة باسم مانزكوت التي وقعت أحداثها في ١٧ ذى القعدة ٤٦٣ هـ ١٦ أغسطس ١٠٧١م . ومن أسباب هزيمة رومانوس أيضاً وتويع خيانة في صفوف القوات البيزنطية . أنظر : Finlay, op. cit., III 33, Oman, op. cit., p. 219 .

لمزيد من التفاصيل عن معركة مانزكوت راجع المحقق رقم (٣).

(٤) إذا كانت القوات البيزنطية قد قدرت بتعين ألف فصي ذلك أن رومانوس اشترك بأقل من ثلاثين ألف مقاتل وليس هذا الرقم بضئيل إذا ما عرفنا أن الجيش السلجوقي كان حوال خمسة عشر ألفاً حسب اتفاق معظم المصادر العربية .

أنظر : صدر الدين أبي الحسن : أختصار لدولة السلجوقية - لاهور - ١٩٣٢ ص ٤٧ ، ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٥ ، ابن العبري : المصدر السابق ص ٣٦٢ .

رومانوس تحمل كل الخطر بنفسه ، ويمكن تفسير ذلك بطريقتين . وتمثل وجهة نظر بسلوس رأياً وسطاً بين الطريقتين . فاذا ما اعتبر بطلاً يواجه الخطر ويحارب بكل شجاعة ، فمن المعقول أن نثني عليه . أما إذا فكر المرء في أن القائد هو من التزم بالتواعد العسكرية المتبعة ويجب عليه أن يظل بعيداً عن خط القتال يشرف على تحركات جيشه ويصدر الأوامر اللازمة للرجال الذين تحت قيادته ، فعندئذ يعتبر سلوك رومانوس تهوراً كبيراً لأنه عرض نفسه وحياته للخطر دون أدنى تفكير في العواقب . ويميل بسلوس كثيراً إلى الثناء عليه لما فعله أكثر من توجيه اللوم إليه . (١)

٢٢ - على أية حال لقد ارتدى رومانوس الزي العسكري بكامله كجندى عادى وشهر سيفه على الأعداء . وطبقاً لرواية كثير من المصادر الخاصة ، فقد قتل رومانوس بالفعل عدداً كبيراً من الأعداء وأجبر عدداً آخر على الفرار . وعندما عرف مهاجموه من هو فيما بعد ، حاصروه من جميع الجوانب وقد جرح وسقط من فوق جواده . وكان طبيعياً أن يأسروا امبراطور الروم ويقتادوه إلى معسكر الأعداء فتشتت جيشه . وكان الذين هوبوا جزءاً يسيراً من كل الجيش ، أما معظم الجيش فقد صار ما بين أسير وقتيل (٢) .

٢٣ - يقول بسلوس لست راغباً في هذه المرحلة أن أكسب عن الزمن الذى قضاه الامبراطور في الأسر أو موقف المنتصرين منه ، وسوف أترك ذلك إلى مرحلة لاحقة (٣) . والمهم أنه بعد أيام قليلة (٤) من المعركة

(١) ماقده المؤرخ في هذا الموضوع يعتبر إنساناً للإمبراطور رومانوس وتحليلاً جيداً للأحداث .

(٢) أنظر أيضاً الملحق رقم (٣) . ٥

(٣) تابع مايل الموضوع رقم (٢٦) .

(٤) استبق السلطان ألب أرسلان ملك الروم في أسيرة بضعة أيام . أنظر الراوندى : راحة الصدور - القاهرة ١٩٦٠ ص ١٩٠ .

استطاع أحد الذين قدر لهم الفرار أن يصل قبل رفاقه ، وقد حمل هذه الأنباء المحزنة إلى المدينة (١) . وبعقبه رسول ثان ثم آخرون . ولم تكن الصورة التي قدموها واضحة لأن كل منهم عرض الكارثة بطريقته الخاصة . فقد روى البعض أن رومانوس قدم مات ، وذكر آخرون أنه وقع أسيراً ، والبعض أعلن أنهم رأوه ملقى على الأرض جريحاً ، بينما ذكر آخرون أنهم رأوه يقتاد مكبلاً بالسلاسل إلى معسكر البرابرة (٢) . وعلى ضوء هذه المعلومات عقد مجلس في العاصمة ، وأخذت الامبراطورة تفكر في الخطوات المقبلة ، وكان القرار الجماعي الصادر عن الاجتماع هو أنه يجب ترك موضوع الامبراطور مؤقتاً سواء أكان أسيراً أم ميتاً ، ويجب على الامبراطور يودكيا وولداها حكم الامبراطورية .

٢٤ - وفي هذا المؤتمر أبدي بعض المستشارين الرغبة في أن يتولى ميخائيل وشقيقه الأصغر (٣) السيطرة الكاملة على ادارة الامبراطورية ، وألا تقرم أمهما بأي دور فعال أيا كان . بينما جدد آخرون أن تستعيد يودكيا السلطة الكاملة مع استبعاد ولديها . أما بسلوس فلم يوافق على كلا الرأيين ، فالرأى عنده - وهو يتحدث بصراحة - هو أن الواجب على الجميع أن ينملا في تناسق ، ويجب على الابن أن يولى والدته الاحترام لأنها أمه ، ويجب أن تظل الأم كحكاكة على قدم المساواة مع ابنها . والحقيقة أن اقتراح بسلوس هذا هو الذي وافق عليه الامبراطور ميخائيل نفسه وأبده (٤) . وقد كان هناك أشخاص يتصورون أن يستأثروا بالسلطة العليا لانفسهم ، وأن يحكموا الدولة لحسابهم وهؤلاء هم الذين حرضوا يودكيا على أن تحكم.

(١) المراد بها مدينة انقطنطينية .

(٢) توضح هذه السطور أن المذبح لا يلقى الاحكام جزائفا بل يمرض المادة التاريخية بكل خدر .

(٣) هو قسطنطين دو كلس .

(٤) لم ينشر هذا الوضع طويلا فقد أجبرت الامبراطورة الأم على التنازل والإنخراط في سلك الرهبانية . أنظر مايل الموضوع رقم (٣١)

مفردهما ، وفي الوقت نفسه كانوا يعملون على احداث الشقاق بين ميخائيل وأمه .

٢٥ - يقول بسلوس : كان من الصعب عليه في هذه المرحلة أن يعبر كما ينبغي عن الاعجاب الذي شعر به نحو هذا الفتى ، لقد ناقش بسلوس مع ميخائيل دستورية هذا التصرف سراً ، وكان ميخائيل مستعداً - إذا شاءت أمه - أن يتنازل عن العرش . كما كان ميخائيل حريصاً على ألا يصدر منه أى تصرف يدل على عدم احترامه لوالدته ، وكان ميخائيل يرى أنه من الواجب أن تعامل أمه بالاحلال الذي يليق بها مهما كان الثمن . ولقد نجح بسلوس في الوصول إلى تسوية بين ميخائيل وأمه يود كيا أكثر من مرة . ولكن ميخائيل كانت تسيطر عليه فكرة أنه لا ينبغي له أن يعارض والدته ، لأن مجرد لقاءهما وجهاً لوجه كان يظهر الحجل والوجل في وجه ميخائيل . لقد أضر ميخائيل على إذلال نفسه تماماً ، وظل هذا الوضع حتى وصل القيصر (١) إلى المدينة بناء على طلب يود كيا وقد أيد القيصر وجهه نظر بسلوس التي ترمي إلى قيام حكم جماعي للأسرة . (٢)

٢٦ - لم تكن مشكلة الحكم تجد حلا لها حتى هوت على رومانوس [البيزنطيني] محنة أخرى في اليوم نفسه (٣) ، فعندما وقع الامبراطور الروماني أسيراً في أيدي القائد العام لقوات العدو ، فإنه لم ينتهج بالنصر الذي حصل بنجاحه الخارق ، لقد احتفل بانتصاره في تواضع غير متوقعة ، فقدم حواساته لأسيره وسمح له أن يشاركه مائدته وعامله كضيف كريم ، وعين له حرساً خاصاً ، وحرر الأسرى الذين حرص الامبراطور على اطلاق

(١) يوحنا دو كاس .

(٢) توسى هذه السطور بأن يود كيا كانت تريد الانفراد بالحكم وأن بسلوس والقيصر يوحنا عارضا هذه الفكرة .

(٣) المقصود بذلك خبر اطلاق سراح رومانوس من الأسر .

سراجهم ، وأخيراً أطلق سراح رومانوس نفسه أيضاً ، بعد أن عقد معه معاهدة صداقة وتلقى منه ضمانات أقسم عليها الامبراطور بأن يلتزم بكل بكل إخلاص بالالتزامات التي قطعها على نفسه ، وإعادته إلى اراضي الرومانية مصحوباً بعدد كبير من الحرس كما يتعنى أى شخص (١) . والواقع أنه كان في اطلاق سراح الامبراطور بداية المتاعب ، فقد كان ذلك ميباً رئيسياً لكوارث عديدة . وبعد أن حصل الامبراطور على تساهل [من عدوه] بفوق تصوره ، أصبح يعتقد أن في امكانه أن يسترد عرشه بدون أية صعوبة (٢) ، ولكي يبرهن رومانوس على حسن الحظ الذي وانه بعد هزيمته ، كتب رسالة بنفسه إلى الامبراطوره يخبرها فيه بكل مغامراته .

٢٧ - وعلى أثر هذه الأخبار ساد الاضطراب الشديد داخل اقمصر وكان الجميع يغدون ويروحون في كل مكان ، فقد اندهش بعضهم عند سماع هذه الأنباء ولم يصدقها البعض الآخر . ووجدت يودكيا نفسها في موقف عصيب وعجزت عن اتخاذ أى قرار . وعندما وصل بسلوس وجد نفسه في صلب المشكلة ، فقد ألح الجميع عليه لتقديم المشورة وامداه النصيح بأفضل تصرف يمكن عمله . ويقول بسلوس لقد كان امبراطوري المحبوب ميخائيل قد انضم إلى البعض وأصر على سماع رأى . ولهذا أعلن بسلوس أنه لم يعد من الضروري استقبال رومانوس داخل الامبراطورية ويجب اعتباره خارجاً على القانون ، ويجب أيضاً اصدار الأوامر في جميع أنحاء الامبراطورية بان حكمه قد انتهى . وقد اقتنع المعتدلون بأن هذه الطريقة

(١) بعد اطلاق سراح رومانوس جهزه السلطان أب أرسلان بشرة آلاف دينار وأطلق جماعة من البطارقة وخلع عليه وسيرمه عسكرياً يوصلوه إلى مأمنه وشيئة فرسخاً . ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٧ ، ابن العبري : المصدر السابق ص ٢٢٢ .

(٢) توضع هذه العبارة أن حكم رومانوس انتهى بوتوجه أميراً في يد السلاجقة وهو تاريخ معركة مانزكرت .

تتحقق المصالح العامة للامبراطورية ، ولكن المعارضون كان لهم رأى آخر (١)

٢٨ - هكذا كانت الأمور تمضى عندما قرر ميخائيل ، نتيجة خوفاً على حياته الخاصة ، وعدم ثقته في [رومانوس] ديوجينيس القاسى الطبع أن يمضى في طريق خاص . ولا شك أن الخطة التى وضعها قد أنقذت حياته ، وكان تصرفاً حكيمياً حقاً . لقد خرج من تحت سيطرة والدته وأصبح سيده نفسه منذ ذلك الوقت . (٢) وبناء على نصيحة أبناء عمه (٣) القيصر يوحنا دو كاس ، ضمن ولاء حرس القصر المسلحين جميعاً بالدروع والسيوف الحديدية الثقيلة ذات الحد الواحد التى تعلق على الاكواب اليمنى Rhomphaia (٤) ، على أية حال ، فقد أخذ الحراس يدقون بعنف على دروعهم في آن واحد ويصيحون صيحات الحرب ، ولوحوا بسيوفهم في صياح ، واتجهوا متماسكين إلى الامبراطور اعتقاداً منهم أنه في خطر . وأحاطوا به من جميع النواحي ، ومنعوا أى فرد أن يقترب منه ، وخملوه إلى الأدوار العليا بالقصر

٢٩ - كان ما حدث كافياً بالنسبة للمعارضين . وخلال هذا انتاب الرعب من ساندوا الامبراطورة ، وكان بساوس أحدهم ولم يدركوا ما حدث . وقد اعتقد بساوس ومن معه أن أحداثاً رهيبه سوف تحدث لهم ، كما فقدت الامبراطورة يودكيا أعصابها فعلاً ، وهربت بعد أن وضعت نقاباً على وجهها ، إلى ماوى سرى تحت الأرض . وبينما كانت تمخض في أعماق هذا السرداب كان بسلوس يقبع في الفتحة التى تؤدى اليه ، ولم يكن

(١) المعارضون هم الحزب العسكري الذى يساند الامبراطور رومانوس .

(٢) كان ميخائيل في الرابعة عشر من عمره عند وفاة والده قسطنطين العاشر عام ١٠٦٧م

أنظر : Oman, C., The Byzantine Empire, London, 1922, p. 251.

وعلى ذلك يكون ميخائيل قد بلغ الثامنة عشر في عام ١٠٧١م .

(٣) قسطنطين وأندرونيقوس .

(٤) هو الحرس الفارنجياني الذى كان مخصصاً لحماية الإمبراطور شخصياً . راجع

Ostrogorsky, op. cit., p. 393.

لذيه أبة فكرة عما يجب أن يفعل ، وإلى أين يمضي طلباً للامان . على أبة حال
 فيعد أن ضمن ميخائيل سلامته الخاصة ، تذكر بسلوس ، وكان أول
 من تخطر على بال ميخائيل . وقد أرسل الرسل للبحث عن مكان بسلوس
 داخل أرجاء القصر . وعندما تعرفوا على مكان بسلوس رفعوه على أذرعهم
 وحلوه إلى الملك في نوكب بهنج ، كما لو كان كشافاً عظيماً أو هدية ثمينة .
 وعندما شاهد الإمبراطور بسلوس تنفس الصعداء كان بعد مرور
 هذه العاصفة ، وعلى الفور عهد ميخائيل إلى بسلوس بمسئولية اتخاذ
 القرارات الضرورية (١) .

٣٠ - وانشغل بسلوس بأمور الدولة ، وكان لا بد من وضع بعض
 الخطط واتخاذ بعض التدابير إذا أريد لإدارة العاصمة أن تجتاز هذا الاعصار ،
 وحوالي ذلك الوقت كان الآخرون يناقشون وضع الامبراطورة الذيلة
 العجوز . وبالاختصار فقد صدر مرسوم بأن تغادر يودكيا القسطنطينية
 وتعيش في دير للراهبات كانت قد أقامته وشيخته بنفسها بالقرب من البحر
 تكريماً للسيدة مريم العذراء (٢) . وقد نفذ هذا المرسوم على الفور رغم
 أن ابناً ميخائيل رفض التصديق على هذا القرار ولم يرض عن نفي أمه .
 ويؤكد بسلوس هذه الحقيقة ويقول : أنه مستعد أن يؤكد أمام العالم كله
 ويشهد الله على ما يقواه . والحقيقة أن الظروف كانت أقوى من ميخائيل

(١) كانت مقاليد الحكم الفعلية في يد القيصر يوحنا وميخائيل بسلوس أثناء حكم يودكيا
 وصية على ولديها . وبعد انتهاء حكم رومانوس أصبح الحكم في يد القيصر يوحنا أنظر :

Brehier, L., op. cit., p. 282

وظل بسلوس داخل القصر . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً فقد تمكن نفقوريزس دوق
 أنطاكية من الوصول إلى القصر والسيطرة على الإمبراطور ميخائيل ، وأبعد بسلوس عن القصر
 وأزال الخطوة عن القيصر يوحنا . راجع أسد رسم : الروم ، دار المكشوف بيروت ١٩٥٦
 ص ٢٠٢ .

(٢) وقعت هذه الأحداث في ٢٤ أكتوبر ١٠٧١ م .

Ostrogorsky, op. cit., p. 304.

وتغلبت على رغباته . (١)

٣١ - في مثل هذه الموضوعات يكرر التاريخ نفسه ، فقد نجد الأشياء نفسها تحدث والأحداث نفسها تقال . وقد اختلف آراء الناس اختلافاً كبيراً حول مصير الامبراطورة ووجهوا ضدها الاقاويل . وترتب على ذلك صدور قرار ثان يقضى بأن ترتدى زى الراهبات ، وقد نفذ هذا الأمر وانتهت فجأة حياة الامبراطورة كحاكمة (٢) .

٣٢ - وبدلاً من أن يتهم رومانوس ديوجينيس لاطلاق سراحه ، امتلاً بالحزن لاحتمال فقدته لعرشه . وقد انضم اليه عدد كبير من الجنود . وعندما كان يتحرك من مكان إلى آخر ، كان يستخدم الأموال العامة في شئونه الخاصة ممياً نفسه بالأيجاد معارضة من أحد . وأخيراً وصل إلى مدينة أماسيه (٣) Amasea الشهيرة ، وهي المدينة التي تحدث عنها الجميع .

٣٣ - كان رد ميخائيل على هذا هو أن عين ابن القيصر الشاب (٤) قائداً عاماً لجيش الرومان . وكان القائد الجديد رجلاً يتسم بحموية كبيرة ، وحضور البديهة وسرعة الخاطر ، والقدرة المتميزة على اختيار الطريق وقدرته على الحديث بأسلوب يفهمه الجميع . وعندما اقترب لرومانوس ديوجينيس من المدينة - بعد ما وطد مركزه في آسيا - أخذ يجمع جيشه

(١) تشير هذه العبارة إلى أن الامبراطور ميخائيل كان العوبة في يد عمه القيصر يوحنا دو كاس .

(٢) أصبح ميخائيل السابع حاكماً منفرداً في ٢٤ أكتوبر ١٠٧١ م أنظر
C.M.H. IV, p. I, p. 210.

وهو التاريخ نفسه الذي دخلت فيه وافته النكير . راجع ص ٢٢ حاشيته (٢) .

(٣) تقع مدينة أماسيه في الشمال الشرقى لآسيا الصغرى ومن أهم مدن تيم أرمينيا كوري واتجاه رومانوس إلى إماسيه يوسى بأنه كان على علم بأنه أصبح غير مرغوب فيه ، لأن المفروض أن يتجه إلى الغرب في طريقه إلى القسطنطينية .

(٤) هورسطنطين بن يوحنا دو كاس عم الامبراطور ميخائيل .

- ويكفنه . . ثم التجأ رومانوس إلى كل ألوان الخيل لكي يأسر خصمه أو يدفعه للخروج من المدينة . وبعد ما ساء مركز رومانوس وتدهور وضعه ، جمع كل قواته وصفها للقتال ضد مهاجميه وقام بهجوم جري . وفي المعركة تكبد كلا الجانبين خسائر كبيرة (١) . ويقول بسلوس : لقد قام قائدنا (٢) بالهجوم على العدو كفارس مجنح وانقض على صفوف الأعداء وكانت قوية كالحصن الحقيقي ، وردّها وحطم صفوفها في أماكن عديدة . ولقد لقي مصرعهم من صمدوا في ميدان القتال بينما أخذ البعض أسرى ، وتمكن عدد ضئيل منهم من الفرار . وكان من بين الفارين [رومانوس] ديوجينيس ، وقد هرب على جواده بأسرع ما يمكن (٣) . ويضيف بسلوس : ولأول مرة أصبح لدينا مبرراً للشعور بالثقة في المستقبل .

٣٤ - وحقيقة الأمر أنه كان في هذه الهزيمة بداية سقوط [رومانوس] ديوجينيس الذي لجأ بعده هذه الأحداث إلى حصن صغير مع حفنة من أتباعه (٤) . ويقول بسلوس : لولا تدخل البعض لسقط رومانوس في أيدينا . ويضيف بسلوس أن رومانوس ديوجينيس كان قد رقى رجلاً من أصل أرمني (٥) ،

- (١) تشير هذه العبارة إلى القوات التي كانت تحت سلطان الإمبراطور رومانوس قوات لا يستهان بها ، فقد إنضم إليه عدد كبير من الجنود . أنظر ماسبق الموضوع (٣١) .
(٢) المقصود به قسطنطين دو كاس ، وكلمة قائدنا توضح موقف بسلوس . من الإمبراطور رومانوس الذي يرى فيه إمبراطوراً غير شرعياً بعد هزيمة مانزكوت .
(٣) وقعت أحداث هذه المعركة عند دوقية Doceia الواقعة إلى الشمال في الطريق بين أماسية والقسطنطينية أنظر : Finlay, op. cit., III, p. p. 35 and no 1.
وقد أشارت المصادر العربية أن رومانوس لجأ إلى دوقية بعد إطلاق سراحه راجع : ابن الأثير المصدر السابق ج ٢٠ ، ص ٦٧ ، ابن العبري : المصدر السابق ص ٣٢٢ .
(٤) المقصود بها قلعة تايروبيون Tyropoen راجع :

Brehier, op. cit., p. 282.

(٥) يقصد شاتانورس الأرمني حاكم مدينة انطاكية . وقد ذكره المؤرخ بالاسم في

الموضوع رقم (٣٨) . راجع أيضاً Finlay, op. cit., III, p. 36.

وكان هذا الرجل خبيثاً ومعارضاً لنا ، وعندما رأى ما صار إليه ولى نعمته انتهر الفرصة لرد الجميل . وذهب ليقابله مع حفنة من جنوده ، وشجع رومانوس على الصمود وبذل له وعوداً عجيبة . ولم يتركه يقاتل قوات الامبراطورية بل أخذه معه إلى قيليقية Cilicia . وقال الرجل الارمينى رومانوس : أن الوديان المحيطة في إقليم قيليقية سوف تمنحه قسطاً من الراحة بدلاً من الهجوم (١) . وبعد ذلك زود الرجل الارمينى رومانوس بالجنود والمال ، وألبسه رداء الامبراطور . وانتظر الرجل اللثيم بعد ما أعد رومانوس للقتال الفرصة المواتية لتجديد القتال ضد معارضيه .

٣٥ - ويقول بولوس : ولهذا عقدنا مؤتمراً آخر ، وناقشنا ما يمكن عمله بعد ذلك . وكان هناك فريق يجذ عقد الصلح مع رومانوس ورأى أنه من الأفضل أن يسمح له بالمشاركة في الحكم ولا نفضل شيئاً أكثر من ذلك ، بينما صمم آخرون على اعلان الحرب والتأكد من عدم اعطاء أية فرصة لرومانوس للمضى في خطته غير المسئولة . وعلى أية حال ، لقد قرر المجتمعون عقد الصلح أولاً (٢) ، وأرسلوا رسالة ودية وبمعاطفة مع الامبراطور. ولكن رومانوس اعتبر الموقف الودى اهانة بالغة، وقال رومانوس : انه شخصياً غير ملام ، وشرع يقدم مطالب خاصة . لقد رفض التنازل عن العرش ، أو أن يخفف من مطالبه الخاصة بالعرش . والحقيقة أن رد رومانوس كان أكثر صلفاً وغروراً عما اعتقد مراسلوه .

٣٦ - وعلى ذلك اضطر الامبراطور [ميخائيل] وهو آسف أن يتمخلى عن فكرة الصلح ، وأسندت قيادة الجيوش الامبراطورية إلى اندرونيقوس Andronicus أكبر أولاد التيمصر [يوحنا] . وكان اندرونيقوس رجلاً

(١) كان تواجده الامبراطور في إقليم قيليقية في مدينة أدنة .

Brehier, L., op. cit., p. 282.

(٢) تشير هذه العبارة إلى أن الحزب السكرى كان لا زال قوياً حتى هذه المرحلة .

طويلاً ، كما كان نبياً وعطوفاً وعادلاً ، وقد أصبح مشولاً عن قيادة كل قوات الامبراطورة في الشرق . وكان الهدف الأول لاندرونيقوس هو أن يحارب جيشه بتعاون تام وأن يركز ولاء رجاله على الهدف المشترك كما كانت معاملته لكل الرتب تنسم بالانصاف والمساواة ، وحاول أن يفهم جنوده كبشر ، وأن يثبت أنه صديق لهم . وكان هدفه الثاني عدم شعور رومانوس بمراقبته أثناء اقتراب رومانوس من ممرات قيليقية حتى يشق طريقه بأمان داخل الشعاب الجبلية الوعرة . وبعد أن يعبر رومانوس كل الأراضي الوعرة يفاجئه اندرينقوس دون توقع (١) . وشرع أندرونيقوس ورجاله في تنفيذ هذه المهمة ، وطبقاً للخطة الموضوعة سارت القوات في ممر على درب جبلي منحدر . وفي هذه الاثناء كان الامبراطور ميخائيل قائماً يخشى أن يقع رومانوس في أيدي جنوده أو يموت وهو يقاتل ، أو يقع أسيراً وتبر أحد أعضاء جمه (٢) .

٣٧ - لقد رأى بسلوس الامبراطور ميخائيل وهو يبكي عدة مرات لتعرض حياته للخطر إذا انتصر رومانوس . وحسب قول ميخائيل لقد كان صديقاً لرومانوس ، وكانت بينهما موثيق وعهود ويخشي ميخائيل بحرقهما . ولهذا السبب أرسل بعض القسس المحبين للسلام ومعهم رسالة ودية إلى [رومانوس] ديوجينيس (٣) . وكانت الرسالة المرسله من ميخائيل

(١) إن فتحة قسطنطين دو كاس وتعيين أخيه أندرونيقوس بدلا منه ترجع إلى فشل قسطنطين في هزيمة رومانوس ، كما أن وصف المؤرخ لاندرونيقوس بهذه الصورة يشير إلى أن أخيه قسطنطين لم يكن مجبراً داخل صفوف الجيش ، وأنه أقدمته عسكرياً . ولمس تعيين قسطنطين في بداية الأمر يرجع إلى تخطيط القيادة في القسطنطينية .

(٢) أشار المؤرخ إلى أن ميخائيل كان صديقاً لرومانوس . انظر سابق الموضوع رقم (٨) والموضوع رقم (٣٧) .

(٣) هم أساقفة علقونية وهرتلية وكلونيا . انظر :

Finlay, op. cit., III, p. 36.

تتضمن كل انواع الوعود ، وفي الوقت نفسه - رغم عناد رومانوس -
ينصحه فيها بالخضوع والاذعان .

٣٨ - وقبل أن تصل هذه الرسالة إلى رومانوس كانت الحرب قد
بدأت. لقد كان رومانوس قابلاً في الحصن الذي سبق له أن سيطر عليه، وكان
يتولى قيادة جيشه شاتاتورس Chatatours الارميني - الذي سبق ذكره
في الفصل السابق - ودخل المعركة وكله أمل في النصر . لقد سيطر القائد
الارميني بمساعدة المشاه والفرسان على بعض المواقع الهامة - قبل أن تصل
قوات الامبراطور ميخائيل اليه - وأعد جنوده للقتال وكان معظمهم من
اللاتين بدياً وعميون للقتال .

٣٩ - واجه شاتاتورس أندرونيقوس بقواته المتأهبة للقتال ، وقبل
أن تتخذ الجنود مواقعها للاشتباك في المعركة ، كان كريستينوس الفرنجي (١)
Crispinus the Frank (ويقول بلس انه كتب هذه السطور يوم
وفاته) يقف مع أندرونيقوس وكل منهما يشجع الآخر . وكان كريستينوس
هذا عدواً للرومان في بداية الأمر ، ولكنه غير موقفه فيما بعد، لم يكن ولاءه
الجديد أقل وضوحاً من عدائه القديم . وعندما رأى كريستينوس رجال
[رومانوس] ديوجينيس مستعدين للقتال طلب من أندرونيقوس أن يثق به
ويسمح له بمهاجمة فرسان رومانوس . وقد انطلق كريستينوس وهاجم
قلب قوات رومانوس ونجح في اختراق صفوفهم . وقد اكتشف كريستينوس
ضعف مقاومة رجال رومانوس لأنهم لم يقاوموا الا لفترة قصيرة ثم ولوا
الادبار، ولذلك طارد كريستينوس الفارين مع جماعة من فرسانه ، واستطاع
أن يلحق بهم خسائر فادحة ، ويأسر منهم عدداً كبيراً .

(١) كان أحد القواد البيزنطيين في ايطاليا ، وفي عام ١٠٦٩م أعلن الثورة لاحتقاده
أنه لا يلقى المعاملة اللائقة به ، ثم اتهم العفو من الإمبراطور رومانوس وأعيد إلى الخدمة العسكرية
أنظر : Brehier, L., op. cit., p. 280.

٤٠ - هزم جيش رومانوس وتشتت ، وعاد أندرونيقوس وكريستينوس منتصران إلى الخيمة التي أعدت لهما . وقدم أحد الفرمان بعد قليل ومعه أحد الأسرى ، وكان الأسير هو شاتاتورس الأرمني الذي قال : انه اثناء فراره سقط في حفرة وزحف إلى ظل شجيرة ، وقد رآه أحد الذين طاردوه وكاد يقتله لولا أنه لمح الدموع في عينيه ، فاكثى بتجريدة من ثيابه ، ومضى لخال سبيله . ثم جاء محارب آخر ، وعندما رآه في هذا الموقف المؤسف اندفع اليه ليقتله . ولكن شاتاتورس أخبره انه إذا أبقي على حياته وحمله إلى قائد معين (ذكره بالاسم) فسوف يكافئه بخفاء . ولما علم أندرونيقوس شخصية الأسير شعر بالانتصار . وعلى أية حال ، فقد زود أندرونيقوس أسيره بالملابس والأدوات التي يحتاج اليها ، وعاملة كقائد شجاع ولم يضع عليه أى قيد رغم أنه كان أسيراً .

٤١ - وكان طبيعياً الا يثق [رومانوس] ودبوجينس في فلول جيشه ، ولكنه كان لا يزال بطمع في نجدة حلفائه الفرمان (١) . وحقيقة الأمر أنه أخذ يشجع رجاله ويعددهم بالراحة في المستقبل القريب . ولكن القوات التي اعتمد على ولائها والرجال الذين عهد اليهم بحماية الحصن (٢) الذي اختبأ فيه كانوا أول من خانوه . لقد عقدوا اتفاقاً مع أندرونيقوس ، وعندما تلقوا وعداً وقسماً بعدم الخاق الأذى بهم ، فتحوا أبواب الحصن وسمحوا لجنود أندرونيقوس بالدخول وأرسلوهم إلى المكان الذي يقيم فيه [رومانوس] دبوجينس . وكان مشهداً غريباً حزيباً ، فقد ولت آمال رومانوس وأصبح مغلول اليدين كالأسير وسلم نفسه لآمره دون شرط . وفي الحال أُجبر على ارتداء زى الرهبان الأسود ثم رفع غطاء رأسه وسمح بقص شعره دون

(١) المقصود الأتراك السلاجقة ، وقد ذكر ابن الأثير أن ألب أرسلان هادن رومانوس حين سنة واصطنعه نائباً عنه . أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٦ .
(٢) كان رومانوس في أحد حصون مدينة أذنة في هذه المرحلة . أنظر :

Finlay, op. cit., III, p. 36.

أن يتم بمن قام بذلك . واجريت مراسم التكريس بسرعة ، وقد تم ذلك بمعرفة من تصادف وجودهم وليس على أيدي من ينبغي أن يقوموا بهذا العمل . وبعد ما كرم رومانوس وأصبح راهباً اقتادوه خارج الحصن واصطحبوه متجهين إلى أندرونيقوس . ولم يقابله الأخير بالصلف والغرور بل بالملاطفة والمراعاة ، فقد صافحه ودعاه إلى خيمته ، وطلب منه أن يكون ضيفه على مائدة فخمة أعدت لذلك .

٤٢ - يقول بلوس : لقد مضت الأحداث سلسلة حتى الآن ، لقد أخذت القارىء إلى الطريق المنكى السلس كما يقول الكتاب المقدس أما أن أنقله إلى ما حدث بعد ذلك فهذه مهمة صعبة . ويضيف بلوس أنه لا يميل إلى ذكر أحداث يجب ألا تحدث إطلاقاً ، وإن كان له أن يستطرد قليلاً ، فإن بعض ما حدث ما كان يجب أن يحدث ، لأن تعاليم الدين والعرف الطبيعي عن إلحاق الأذى بحول دون هذا العمل . ومن ناحية أخرى فإن ظروف تلك المرحلة وما تطلبه الموقف من حدوث تغييرات مفاجئة لأى من الطرفين المتصارعين كانت من العوامل التي أوجبت حدوثه . ولقد تم ذلك على النحو التالي : لقد خشيت العناصر المخلصة في المجلس الامبراطورى من نجاح رومانوس في السيطرة على الامبراطور ميخائيل . ولهذا عمدت هذه العناصر إلى كتاب رسالة إلى شخص معين أوكلوا اليه مهمة تنفيذ عمل عيني رومانوس ، وقد تم ذلك دون علم ميخائيل (١) .

٤٣ - كان الامبراطور ميخائيل على جهل تام بما جرى ، ويقول بلوس : انه لا يذكر ذلك تملقاً لميخائيل ويعلم الله ذلك ، وأن ما ذكره هو الحقيقة . وعندما علم ميخائيل مؤخراً بما حدث بكى بكاء مراراً أكثر مما بكى رومانوس قبل محنته . لقد أحزنت ميخائيل هذه الأخبار ولم تفرحه أو أبدى

(١) لقد سلم رومانوس نفسه بعد ما ضمن له حياته أساقفة غلفونية وهرقلية وكلونيار لكن بالقيصر يوحنا لم يعبأ بذلك وأمر بسمل عيني الامبراطور ونفاه إلى جزيرة بروت
Finlay, op. cit., III, p. 36.

أى علامة من علامات السرور ، وهو شعوره نفسه عندما سمع بوقوع رومانوس أسيراً ، ولم يمنع ميخائيل من البكاء أمام الناس سوى الاستياء العام . على أية حال ، لقد أرسل رومانوس وهو أعشى ليقم في الدير الذي أنشأه في جزيرة بروت Prote حيث توفي بعد قليل (١) ، بعد ما استمر حكمه أقل من أربع سنوات . (٢) ولقد أصبح ميخائيل حاكماً بلا منازع للامبراطورية .

بعد هذا العرض لعصر رومانوس الرابع في حولية ميخائيل بسلوس يمكن القول في ختام هذا البحث أن بسلوس تناول بعض جوانب عصره بالشرح والتفصيل خاصة ما يتعلق بالأحداث التي وقعت في القصر ، كما تناول بعض الأحداث بإيجاز ولم يوفها حقها مثل بعض الأحداث المتعلقة بالصراع مع السلاجقة . وعلى أية حال ، فقد تناول الباحث المادة التاريخية التي تركها لنا بسلوس بالتعمد والتحليل وحدد تواريخها وأما كن حياؤها وغير ذلك من الأمور التي تجعل المادة التاريخية واضحة جلية . والأهم من ذلك ان بسلوس أغفل ذكر حادثتين هامتين وقعتا في عصر رومانوس .

والحادثة الأولى تتعلق بحملة عسكرية وقعت أحداثها في عام ١٠٧٠ م ، وهي الحملة التي تولى أمرها القائد العسكري مانويل كومنين Manuel Comnenus قائد القوات البيزنطية في الشرق في عصر رومانوس (٣) وقد عهد رومانوس إليه بمراقبة تحركات السلاجقة في آسيا الصغرى ووقف غاراتهم ، ولكن مانويل لم يوفق في مهمته وهزم أمام القوات الإسلامية

(١) ترقى في عام ١٠٧٢ م .

(٢) من أول يناير ١٠٦٨ - ١٦ أغسطس ١٠٧١ م ، ثلاث سنوات وسبعة أشهر ونصف ..

C.M.H. IV, p. I, p. 210

Anna Comnena, The Alexiad, tr. Sewter, Penguin Book, 1969, (3) p. 73.

ووقع أسيراً في أيديها . وقد شجع هذا القوات السلجوقية فاستمرت في غاراتها حتى وصلت إلى مدينة خونبة التي هلك الكثير من أهلها في محاولتهم الفرار أمام غارات السلاجقة . والواضح أن السلاجقة قد تشجعوا بعد هذه الأحداث ، فاستولى السلطان ألب أرسلان على مدينة مانزكرت في العام نفسه (١٠٧٠ م) واغار على مدينة الرها ، وبعد أن قضى خمسين يوماً أمام أسوارها عاد إلى بلاده . (١)

وإذا كانت الحادثة الأولى تتعلق بالشرق ، فإن الثانية تختص بالغرب . ففي السادس عشر من ابريل عام ١٠٧١ م نجح روبرت جويسكارد Robert Guiscard دوق أبوليا Apulia (١٠٥٧ - ١٠٨٥ م) ، في انتهاز فرصة انشغال القوات البيزنطية بالحروب السلجوقية واستولى على مدينة باري Bari . وبسقوط مدينة باري في يد النورمان تنهى السيطرة البيزنطية على آخر موقع لها في إيطاليا (٢) .

Brehier, op. cit., p. 280, Finlay, op. cit., III, p. 30. (1)

(٢) عن هذه الأحداث راجع : Anna Comnena, op. cit., p. 53 and no 34 La-Monte, The World of The Middle Ages, New York, 1949, p. 277; Painter, S.A., .History of The Middle Ages, New York, p. 198; Hasking, The Norman in The European History, New York, 1959, p. 202.

ملحق (١)

حلة رومانوس الرابع على منبج

في ٢٠ أكتوبر ١٠٦٨ م ١٩ محرم ٤٦١ هـ

لعل أسباب هذه الحملة ترجع بصفة عامة إلى تقدم الأتراك السلاجقة المطرد في آسيا الصغرى على حساب الأراضي البيزنطية ، وبصفة خاصة عندما هاجم السلاجقة مدينة انطاكية وما حولها ثم عودتهم في جمادى الآخرة عام ٤٦٠ هـ ابريل - مايو ١٠٦٨ م (١) . وعلى ذلك سار رومانوس واتجه إلى مدينة ليكاندوس Lykandos حيث وصله الأخبار بأن الجيش السلجوقي اتجه إلى إقليم بنطس Ponts في الشمال وأغار على مدينة قيصرية . وأسرع رومانوس واعترض طريق عودة السلاجقة عند مدينة سيواس Sebaste (Sivas) وجبال تفريك Tephrike وأجبر السلاجقة على الفرار بعد ما نجح في تحرير الأسرى واسترداد الغنائم (٢) .

ثم اتجه رومانوس في العام نفسه ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ - ١٠٦٨ م إلى الجنوب وأغار على نواحي مدينة حلب واستولى على مدينة منبج Hierapolis وحصنها (٣) ، باعتبارها من القلاع الحصينة المتقدمة على حدود الامبراطورية وهاجم بلدة عزاز (٤) ، وعاد إلى بوابات قليقية ، حيث علم بأن السلاجقة

(١) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ١١ - ١٢ .

(٢) Finlay, op. cit., III, pp. 27-8.

(٣) Michel Le Syrien, Chronique, ed. Chabot, Paris 105, III, p. 168.

الاستغاثي : المصدر السابق ص ٣٥

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ١١ - ١٢ .

انتهزوا فرصة تواجده في منبج وأن الحدود الشرقية أصبحت مفتوحة أمامهم
فانجهوا إلى عمورية (١) وعادوا بسرعة دون أن يلحق بهم رومانوس (٢)

والقضية التي أفرد لها الباحث هذا الملحق هي تاريخ سقوط مدينة
مدينة منبج في يد رومانوس ، فقد أورد المؤرخ بيلوس طرفاً من هذه الحلقة
ولم يحدد تاريخها أو الأماكن التي وقعت فيها الأحداث . كما أشار ميخائيل
السيرباني إلى سقوط منبج ولم يتحدث حتى عن السنة التي سقطت فيها .
أما المصادر العربية فقد اختلفت في السنة التي وقعت فيها الأحداث . فبعضها
ذكر أنها وقعت في عام ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ - ١٠٧٠ م (٣) والبعض الآخر
يتفق مع ابن العديم بأنها وقعت في عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ - ١٠٦٩ م وحدد
شهر الحرم من العام نفسه تاريخاً لسقوطها (٤) . وبالرجوع إلى المراجع
تبين أن بعضها حدد عام ١٠٦٨ م ولم يحدد الشهر (٥) . وبعضها حدد العشرين
من نوفمبر عام ١٠٦٩ م (٦) .

وتحليل هذه الأحداث ومادتها التاريخية ، نجد أن أسباب الحلقة
ترجع إلى مهاجمة المسلمين لمدينة انطاكية في بخمادى الآخرة عام ٤٦٠ هـ /
أبريل - مايو ١٠٦٨ م . ولما كانت مدينة انطاكية من المدن الهامة بل
والمقدسة لدى البيزنطيين ، وأن رومانوس اعتلى العرش كقائد عسكري

(١) السطيس : تاريخ السطيس . نشرة كاهن ١٩٣٨ في Journal Asiatique من ٣٥٨

(٢) Finlay, op. cit. III, p. 28.

(٣) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق - بيروت - ١٩٠٨ ص ٩٨ ، الأصمغاني :
المصدر السابق ص ٣٥ ، ابن الأثير ، المصدر السابق ص ١٠٠ ص ٦٠

(٤) ابن الجوزي : سرة الزمان ، عل هاشم ذيل تاريخ دمشق ص ٩٨ حاشية ٢

(٥) Ostrogorsky, op. cit., p. 304, C.M.H. IV, p. I, p. 209.

(٦) أسد رستم : المرجع السابق ج ٢ ص ١١٠ ، Brehier, op. cit., p. 280

بمساعدة الحزب العسكري ، فقد أصبح الأمر لا يحتفل النار للمدينة حتى
نهاية عام ١٠٦٩ م ، ومن ثم فالباحث يميل إلى ما أورده ابن الجوزي بأنها
أخذت في المحرم عام ٤٦١ هـ وفي العشرين من نوفمبر عام ١٠٦٨ م . وعلى
ذلك يمكن القول أن مدينة منبج سقطت في التاسع عشر من محرم عام ٤٦١ هـ
العشرين من نوفمبر عام ١٠٦٨ م .

ملحق (٢)

حملة رومانوس الثانية على خلاط

في أواسط عام ١٠٦٢ هـ / ربيع ١٠٦٩ م

كان الأتراك السلاجقة قد اجتاحوا الأراضي المحيطة بمدينة قيصرية فخرج اليهم رومانوس بجيشه لدفعهم عن الأراضي البيزنطية في ربيع عام ١٠٦٩ م / أواسط عام ٤٦٢ هـ (١) . وحتى ينتهي رومانوس من طردهم بأسرع وقت ممكن ، فقد كان يقتل الأسرى لكي لا يخصص جانباً من جنده لحراستهم ، ويستفيد بكل قوائمه في المعارك العسكرية . وبعد ما وصل إلى إقليم قيسوقية اتجه إلى مدينة ملطية عبر مدينة رومانوبوليس Romanopolis وكانت خطته تنحصر في محاصرة مدينة خلاط أملا في حماية الحدود الأرمينية من غارات السلاجقة . ولم يرسل رومانوس أحد قواده لتنفيذ هذه المهمة بل اتجه على رأس جيشه إلى مدينة خلاط (٢) وعهد بحماية الحدود إلى القائد الأرميني فيلاريتوس Philaretos دوق أنطاكية . وكعادة السلاجقة في حربهم الخاطفة أفسحوا له الطريق والتفوا حوله وهزموا فيلاريتوس وانجهموا إلى مدينة قونية Iconium فهاجمها وعادوا محملين بالغنائم (٣) . وعندما وصلت هذه الأخبار إلى مسامع رومانوس تراجع عن خلاط واتجه إلى سيواس وأرسل إلى فيلاريتوس ليقطع خط الرجعة على السلاجقة في

(١) انظر ماسبق المرضوع رقم (١٥)

Finaly, op. cit., III, p. 29.

(٢)

وقد ذكر ابن القلانسي أن رومانوس عاش في ناحية شازجرد (مانزكرت) عام ٤٦٢ هـ . وفي نواحي مانزكرت تقع مدينة خلاط . انظر : ابن القلانسي المصدر السابق ص ٩٨ .

(٣) Runciman, A History of The Crusades, Cambridge, 1954, I, p. 16; Brehier, op. cit., p. 280.

الوقت الذي بهاجم رومانوس فيه السلاجقة عند مدينة هرقلية Heracleia كما اشترك الأرمن في مهاجمة السلاجقة عند جبال قيليقية وأجبروهم على ترك الأسلاب والفرار (٤) . وكافأ رومانوس فيلاريتوس على شجاعته ومنحه لقب دومستيق Domestic (١) ، أي ضابط قصر .

وبعد عرض أحداث هذه الحملة يمكن القول أن أحداث هذه الحملة قد وقعت في ربيع العام التالي لحملة الأولى في عام ١٠٦٨ أي ربيع عام ١٠٦٩ م أواسط عام ٤٦٢ هـ ، وهو ما سجله الباحث في الحاشية رقم (١) صفحة (١٣) .

(1) Anna Comnena, The Alexiad, tr. Sewter, Penguin 1969, p. 198.

ملحق (٣)

معركة مانزكرت

١٧ ذى القعدة ٤٦٣ هـ / ١٦ أغسطس ١٠٧١ م

الهدف من هذا الملحق هو التقاء الضوء على معركة مانزكرت لتحديد خمس نقاط معينة ، الأولى هي تاريخ خروج الامبراطور رومانوس بجيشه من القسطنطينية ، والثانية هي التعرف على حجم القوات البيزنطية والسلجوقية ، والثالثة تتعلق بالمعركة وتاريخها . أما الرابعة فهي مرتبطة بأسر الامبراطور ومعاملته ، والخامسة والأخيرة تخص النتائج المترتبة على هذه المعركة .

وفيما يتعلق بتاريخ خروج الامبراطور للقتال ، فقد أشار المؤرخ بيلوس ان خروجه كان في الربيع دون ذكر السنة ، أما المصادر العربية فقد أوضحت ان خروج البيزنطيين كان في عام ٤٦٣ هـ / أكتوبر ١٠٧٠ - أغسطس ١٠٧١ م . والربيع الواقع في هذه الفترة هو ربيع عام ١٠٧١ م ، أواسط عام ٤٦٣ هـ .

أما عن حجم وتسلح القوات البيزنطية ، فقد ذكر بيلوس أن رومانوس خرج لمحاربة السلاجقة مصحوباً بجيوش حليفة ووحدات عسكرية بيزنطية أكبر من حجم القوات التي خرج بها رومانوس من قبل ، ولم يشر إلى حجم القوات السلجوقية . وذكرت بعض المصادر العربية أن القوات البيزنطية كانت على ما قيل مائة ألف من الروم «وانضاف إليهم من سائر الطوائف» ، وأن القوات الإسلامية كانت على ما ذكر أربعائة ألف من الأتراك وجميع الطوائف (١) . وذكرت مصادر أخرى أن الجيش البيزنطي كان يزيد

(١) ابن القلانسي : المصدر السابق ص ٩٩ . وهي أعداد مبالغ فيها .

على ثلاثمائة ألف فارس ورجال تضمنت عناصر من البيزنطيين والأرمن
والفرس والبيجناكية والغز والفرنجية ، وأن القوات الإسلامية كانت خمسة
عشر ألف من الثرمسان الشجعان (١) . وذكر آخرون أنهم جاءوا في سبعمائة
ألف فارس ، وأن المسلمين كانوا اثني عشر (٢) .

وذكر ابن الأثير أن القوات البيزنطية كانت مائتي ألف من الروم
والفرنج والروس والبيجناك والكرج وغيرهم من طوائف تلك البلاد ،
وأن المسلمين كانوا خمسة عشر ألف فارس (٣) . أما ابن العبري فقد روى
أن القوات البيزنطية كانت مائة ألف وأن القوات الإسلامية خمسة عشر
ألف (٤) . وسجل ابن العديم أن عدد القوات البيزنطية كانت ثلاثمائة ألف
أو يزيدون ما بين فارس وراجل من جموع مختلفة من الروم والروس والخزر
واللان والغز والقفجاق والكرج والبخاز والفرنج والأرمن وفيهم خمسة
آلاف من رماة الأقواس ، وأن المسلمين كانوا خمسة عشر ألف (٥) .
وذكر ميخائيل السرياني أن عدد القوات السلجوقية كان اثني عشر ألفاً ،
ولم يذكر أعداد القوات البيزنطية . (٦)

من ذلك يتضح أن بعض المصادر قد غالت كثيراً في ذكر حجم القوات
المشاركة في القتال مثل ابن القلانسي ، لذلك يرى الباحث عدم الاعتماد
عليه في هذه الناحية . ويتبين بعد ذلك أن ما ذكرته المصادر العربية حول
القوات البيزنطية يتراوح بين ثلاثمائة ألف وأقلها مائة ألف . ولكن المراجع

(١) صدر الدين إبي الحسن : المصدر السابق ص ٤٧ .

(٢) الزاوي : المصدر السابق ص ١٨٩ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ص ١٠ ص ٦٥ .

(٤) ابن العبري : المصدر السابق ص ٣٢٣ .

(٥) ابن العديم : المصدر السابق ص ٢٤ .

Michel Le Syrien, op. cit., III, p. 169.

(٦)

المتخصصة ترى أن حجم القوات البيزنطية كان مئتين ألف (١) ، وهو عدد مقبول ومعقول أخذ به الباحث ، وأنها اشتملت على عناصر بيزنطية وغير بيزنطية .

أما عن تسليح القوات البيزنطية فالمعروف ان العمليات العسكرية في الجيش البيزنطي كانت تقع على عاتق المشاة والفرسان المزودة بالدرع - ويبدو أن رومانوس استعد استعداداً كبيراً لهذه المعركة فقد كان لديه ثلاثة آلاف أو أكثر من العربات لنقل الأحمال ، هذا بالإضافة إلى المعدات التي كان فيها منجنيق كبير يرمى حجراً وزنه بالرطل الخلابي قطار ، وكأنه جبل له في الجو مطار (٣) .

وفيما يتعلق بوقائع هذه المعركة فالواضح أن رومانوس كان يعتمد على عنصر المفاجأة ، لذلك قسم جيشه إلى قسمين أحدهما يتولى قيادته القائد النورماني رسل دي باييل Roussel de Bailleul ومعه المرتزقة الأوربيين للاستيلاء على خلاط . والجزء الثاني يتولى رومانوس قيادته بنفسه ويتجه إلى ما تزكرت (٣) ، لاستعادتها من يد السلاجقة .

كانت تحركات البيزنطيين مفاجأة للسلطان ألب أرسلان الذي كان في أذربيجان عندما وصلت القوات البيزنطية إلى أرزن الروم ، وكان السلطان في خواص جنده ، وجموع عساكره بعيدة عنه ، فبقي في خمسة عشر ألف فارس من نخبة عسكره واتجه إلى ميدان المعركة (٤) . وكان ذلك يوم الأربعاء الخامس عشر من ذي القعدة ٤٦٣ هـ / ١٤ أغسطس ١٠٧١ م (٥) -

(١) Oman, op. cit., I, p. 219.

(٢) الاسفهانى : المصدر السابق ص ٤١ صدر الدين أبي الحسن : المصدر السابق ص ٥٢

(٣) Finally, op. cit., III, p. 31.

(٤) ابن العديم : المصدر السابق ج ٢ ص ٢٤ .

(٥) صدر الدين أبي الحسن : المصدر السابق ص ٤٩

والواضح أن ألب أرسلان كان قد عرف بكبر حجم القوات البيزنطية ، فأرسل في طلب الصلح من الامبراطور رومانوس ، ولكن الامبراطور رفض وقال : لاهدنه الا بالرى ، أى بعد هزيمة السلطان ألب أرسلان ودخوله مدينة الرى - ويرى البعض أن السفارة التى أرسلت لطلب الصلح لم تكن غير عيون للسلطان وأن مقصوده كان «أن يكشف سرهم ويتعرف أمرهم» (١) .

وإذا كان رومانوس هو الذى دق ناقوس الحرب ضد السلاجقة وحدد أرض المعركة ، فان ألب أرسلان هو الذى حدد موعدها ، وتتفق المصادر أن الطرفين التقيا يوم الجمعة السابع عشر من ذى القعدة عام ٤٦٣ هـ / ١٦ أغسطس ١٠٧١م ، وقت الصلاة حسب ما أشار به الفقهاء على السلطان (٢)

اصطف الجبشان للقتال ووضع رومانوس نفسه على رأس القوات فى الوسط ، وعهد بالجنح الأيمن إلى القائد القبادوق اليانس Alyattes وإلى الجنح الأيسر إلى نقفور بريئوس Nicephorus Bryennius ، وتولى أمر الجنود الاحتياطية أندرونيقوس بن يوحناوكاس ألد أعداء الامبراطور. وظلت المعركة من ظهر ذلك اليوم حتى قرب غروب الشمس ، ولم يحقق أى طرف نصراً ملموساً على الآخر . ومع اقتراب المساء أعطى رومانوس أوامره للجيش بالعودة إلى المعسكر البيزنطى (٣) . والواضح أن اندرونيقوس

(١) الامتهال : المصدر السابق ص ٣٩ .

(٢) صدر الدين أبى الحسن : المصدر السابق ص ٤٩ . ويرى البعض أن المعركة وقعت

فى أغسطس ١٠٧١ - راجع Bailly, A., Byzance, Paris, 1948, P 269

Ostrogorsky, op. cit., P. 304 ويرى آخرون أنها وقعت فى

٢٦ أغسطس ١٠٧١ - أنظر Brehier, op. cit., P. 281, C. M. H., IV, P. 210

Finlay, op. cit., III, p. 34.

(٢)

كان قد انسحب في وقت غير مناسب وأذاع عن عمد شائعة تفيد هزيمة الجيش البيزنطي (١) . وقد بسبب ذلك كله ارتباكاً في صفوف القوات البيزنطية ، وهي الفرصة التي استغلها السلاجقة لا تزال الضربات بالجيش البيزنطي ، وحاول رومانوس أن يعالج الموقف بما تحت يديه من قوات وقائل حتى هزم ووقع في الأسر .

وفيما يتعلق بمعاملة السلطان للإمبراطور رومانوس فقد اتفقت المصادر عن حسن معاملة ألب أرسلان لأسيره الإمبراطور . ومما ذكرته المصادر أن السلطان قال للإمبراطور : ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت ، فقال رومانوس ، دعني من التوبيخ وأفعل ما تريد . فقال السلطان : ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني ؟ فقال الإمبراطور : أفعل القبيح . قال السلطان فما تظن أني أفعل بك ، قال الإمبراطور : إما أن تقتلني وإما أن تشر بي في بلاد الاسلام ، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال ، واصطناعي نائباً عنك . قال السلطان : ما عزمت على غير هذا (٢) وهناك رواية أخرى بيزنطية حول نفس المعنى فقد سأل السلطان الإمبراطور عما كان يفعله به إذا كسب المعركة وأمر السلطان ، فأجاب الإمبراطور : كنت أجدك حتى الموت ، ولكن ألب أرسلان قال له : لن أجدك فقد قيل لي أن السيد المسيح علمكم الصلح عن الخطايا وأنه يكره التكبر ويكرم المتواضع (٣)

وتم الصلح بين الطرفين ، وانتدى رومانوس نفسه بالمال (٤) ، واشترط ألب أرسلان على رومانوس أن يرسل إليه عساكر الروم في أي وقت يطلبها وأن يطلق سراح أسرى المسلمين ، وهادنه السلطان خمسين سنة (٥) .

(١) Scylitzes, Historia, p. 698.

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١ ص ٦٧ .

(٣) Scylitzes, ots. cit., P.700

(٤) ذكر البعض أنه ألف ألف دينار وخمسة آلاف . ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٧ ، وذكر آخرون ألف ألف دينار . ابن العبري : المصدر السابق ص ٢٢٣ .

(٥) ابن الأثير : المصدر السابق ج ١٠ ص ٦٧ .

أما عن نتائج هذه المعركة فيمكن القول أن هذه المعركة فتحت الحدود الشرقية البيزنطية على مصراعها أمام التقدم السلجوقي ، وأن الإمبراطورية البيزنطية فقدت اسمها كحامية للحدود الشرقية الأوربية ، وأن السلاجقة نجحوا في مراحل لاحقة في السيطرة على جانب كبير من آسيا الصغرى . أما في الجانب البيزنطي ، فقد تسببت في أن يفقد رومانوس عرشه ، وزيادة الصراع على السلطة داخل العاصمة البيزنطية لفترة ليست بقصيرة ، كما اتخذ البعض من معركة مانزكرت سبباً من أسباب الحروب الصليبية (١)

William of Tyre, A History of Deeds Done Beyond The Sea, (1)
New York, 1943, I, pp. 77—8.

وعن المزيد من النتائج راجع .

جوزيف نسي يوسف : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى دار المعارف
طبعة ثانية - ١٩٦٧ - ص ١٤٥ وما بعدها .